



الجزءان :

السابع والثامن

obeikandi.com

الآفة السابعة والثلاثون

الخذلان

والآفة السابعة والثلاثون ذات الآثار الضارة، والعواقب الوخيمة إنما هي: «الخذلان» وحتى يبرأ من ابتلى بهذه الآفة، ويحترز منها من سلّمه الله - عز وجل - ووقاه شرها فإن لا بد من تصور دقيق لها، يوضح أبعادها ومعالمها، وذلك من خلال هذه الجوانب:

أولاً: تعريف الخذلان لغة واصطلاحاً:

لغة: الخذلان يأتي في اللغة بمعان عدة، نذكر منها:

١ - ترك الشيء، والقعود عنه، ثم خصّ بترك المعونة، والنصرة.

يقال: خذلت الوحشية ولدها، فهي خذول أي: قعدت، وتركته.

ويقال: خذّله خذلانا: إذا ترك عونه ونصره.

٢ - الضعف، والانهازم: تقول: تخاذلت رجلاه: ضعفتا، والخاذل: المنهزم.

٣ - الإسلام للغير، وتخيب الآمال، تقول: خذّله يخذّله خذلاً، وخذلانا، وخذلانا، أي: أسلمه وخيَّبه.

٤ - التثييط، والفت في العضد، تخاذل القوم، أي: ثبط كل واحد من عزيمة صاحبه، وفت في عضده (١).

ولا تعارض بين هذه المعاني جميعاً إذا هو تثييط وفت في العضد يؤدي إلى الضعف، والانهازم، وترك المعونة والنصرة، بل الإسلام للغير، وتخيب الآمال.

اصطلاحاً: قال الراغب الأصفهاني: الخذلان: ترك النصره ممن يظن به أن ينصر (٢)، وقال ابن الأثير: الخذل: ترك الإغاثة، والنصرة (٣).

(١) انظر: معجم مقاييس اللغة لابن فارس ١٦٧/٢، الصحاح للجوهري ١٦٨٣/٤، لسان العرب لابن منظور ١١١٨/٢ بصائر ذوى التمييز ٥٣١/٢ بتصرف.

(٢) انظر: المفردات ص ١٤٤ بتصرف.

(٣) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر ١٦/٢.

ولعل المعانى اللغوية للخذلان ، وكذلك ما ذكره الراغب ، وابن الأثير تساعد كلها فى رسم صورة واضحة ودقيقة للمعنى الاصطلاحى ، وخلاصته أنه: تثبيط شياطين الإنس والجن للمرء ، وفتهم فى عضده بصورة تؤدى إلى الانهزام النفسى ، والضعف والعود عن تقديم المعونة والنصرة لمن هو فى حاجة إليها ، بل ربما إسلامه للغير بما يقطع الرجاء ويخيب الآمال .

ثانياً : صور الخذلان وموقف الشارع الحكيم من هذا الخذلان :

صور الخذلان كثيرة نذكر منها :

١ - رؤية الحرمات من دم ، ومقال ، وعرض ، ودين تنتقص ، دون أن يكون هناك أدنى تحرك لحماية هذه الحرمات ، ولو بالإنكار القلبى ، وتمعُّر الوجه ، ومقاطعة المعتدى على هذه الحرمات .

٢ - إسلام المظلومين للظالمين للنيل منهم ، والتنكيل بهم بأوسع ما تتضمنه هذه الكلمة .

٣ - قبول المسلم أن يكون يد الظالمين المنفذة لما يراد بالمظلومين من النيل منهم والتنكيل بهم .

وخذلان مَنْ هو محتاج إلى المعونة ، والنصرة من يقدر على ذلك ولا يقدمه كبيرة من الكبائر تقتضى وجوب التوبة فوراً عن ابتلى بها ، وذلك بالإقلاع عن هذا الموقف المذل المخزى ، والتحوُّل للنقيض قبل أن تقع الواقعة ، وتضيق الفرصة ويكون الندم حيث لا ينفع الندم ، والدلائل الشرعية على هذا الحكم تتجلى فى هذه النصوص .

١ - قوله عليه السلام : « ... المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه ، ولا يسلمه ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته ، ومن فرَّج عن مسلم كرباً فرج الله عنه كرباً من كربات يوم القيامة ، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة » ^(١) .

٢ - وقوله عليه السلام : « ما من امرئ يخذل مسلماً فى موطن ينتقص فيه من عرضه ، ويتهك فيه من حرمة ، إلا خذله الله فى موطن يحب فيه نصرته ، وما من امرئ ينصر

(١) الحديث أخرجه البخارى فى: الصحيح: كتاب المظالم: باب لا يظلم المسلم المسلم، ولا يسلمه، ص ٣٩٤ رقم ٢٤٤٢، وكتاب الحيل: باب يمين الرجل لصاحبه أنه أخوه... ص ١١٩٩ رقم ٦٩٥١ ومسلم فى: الصحيح: كتاب البر والصلة: باب تحريم الظلم ص ١١٢٩ رقم ٦٥٧٨/٥٨/٢٥٨٠ كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً ، واللفظ للبخارى .

مسلمًا في موطن ينتقص فيه من عرضه، ويتهك فيه من حرمة إلا نصره الله في موطن يحب فيه نصرته « (١) .

٣ - قوله ﷺ : « مَنْ أكل برجل مسلم أكله فإن الله يطعمه مثلها في جهنم، ومن كسى ثوبًا برجل مسلم، فإن الله يكسوه مثله من جهنم ، ومن قام برجل مقام سمعة ورياء ، فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة » (٢) .

٣ - قوله ﷺ : « انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا » قالوا : يا رسول الله هذا نصره مظلومًا فكيف نصره ظالمًا؟ قال : « نأخذ فوق يديه » (٣) .

ووجه الدلالة من النصوص الثلاثة الأولى : أنها جاءت بصيغة الخبر الذي ما له الأمر بالنصرة، والنهي عن الخذلان كما هو - مقرر عند علماء الأصول أما النص الرابع فدلالته واضحة إذ فيه التصريح بإعانة المظلوم، ومنع الظالم من التماذى فى ظلمه، وتلك أعظم نصرة له، وإعانة .

ثالثًا : الآثار المترتبة على الخذلان :

للخذلان آثار خطيرة وعواقب مهلكة وأهمها :

أ - على العاملين :

١ - فقد الثقة وضياع الهيئة :

ذلك أن من يخذل غيره وهو قادر على الوقوف بجانبه، ونصرته، يسحب الناس

(١) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب الرجل يذب عن عرضه أخيه ص ٦٨٩ رقم ٤٨٨٤ من حديث جابر بن عبد الله، وأبى طلحة بن سهل الأنصارى رضي الله عنه مرفوعًا بهذا اللفظ ، وأورده الهيثمى فى : مجمع الزوائد : كتاب الفتن باب فيمن قدر على نصر مظلوم أو إنكار منكر ٢٦٧/٧ من حديث جابر، وأبى أيوب الأنصارى ، وعقب بقوله : « حديث جابر وحده، رواه أبو داود ، ورواه الطبرانى فى الأوسط ، وإسناده حسن » .

(٢) الحديث أخرجه أبو داود فى : السنن : كتاب الأدب : باب فى الغيبة ص ٦٨٨ رقم ٤٨٨١ من حديث المستورد بن شداد رضي الله عنه مرفوعًا به، وأحمد فى المسند ٢٢٩/٤ وأورده الألبانى فى : صحيح أبى داود ٩٢٣/٣ ، والسلسلة الصحيحة رقم ٩٣٤ .

(٣) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب المظالم : باب عن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ص ٣٩٤ رقم ٢٤٤٣ ، ٢٤٤٤ ، وكتاب الإكراه : باب يمين الرجل لصاحبه ص ١١٩٩ رقم ٩٩٥٢ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه مرفوعًا ، ومسلم فى : الصحيح : كتاب البر والصلة : باب نصر الأخر ظالمًا أو مظلومًا ص ١١٣٠ رقم ٦٥٨٢/٦٢/٢٥٨٤ من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه مرفوعًا فى قصة مشهورة بين المهاجرين والأنصار .

ثقتهم به، وتذهب هيئته على نحو ما صنع عبد الله ابن سلول حين انسحب بثلاثمائة من أتباعه يوم أحد، قائلاً: ﴿لَوْ نَعَلَمُ قِتَالًا لَأَتَعْنَاكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٧]. وتخلى عن نصرة المسلمين ساعة الشدة، والمحنة إنه بهذا العمل سقط من أعين الناس، وضاعت هيئته واحترامه، فلم يعد يثق به أحد.

٢- الحرمان من العون والنصرة ساعة الشدة والمحنة:

ذلك أن الحياة شدائد وامتحانات، ومن تخلى عن نصرة من أصابته شدة أو نزلت به محنة مع القدرة على النصرة والإعانة سيصيبه ما أصاب غيره، ويفتش عن الناصر والمعين فلا يجد جزاءً وفاً، وكذلك يسهل على العدو قضمه، وابتلاعه من باب «أكلت يوم أكل الثور الأبيض» (١).

وقد مضى حديث النبي ﷺ ولفظه: «ما من امرئ مسلم يخذل مسلماً في موطن ينتقص فيه عرضه وينتهك من حرمة، إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصره... الحديث» (٢).

٣- الفضيحة يوم القيامة على رؤوس الأشهاد:

ذلك أن من خذل أخاه عن طريق الوشاية به، وإسلامه للعدو، فقد شمر به، ومن شهر بالناس في الدنيا شهر الله به يوم القيامة، وفضحه على رؤوس الأشهاد، فيا حسرة من اختار لنفسه هذا المصير السيئ والعاقبة المذمومة.

يقول النبي ﷺ: «... ومن قام برجل مقام سمعة ورياء فإن الله يقوم به مقام سمعة ورياء يوم القيامة» (٣).

(١) يروى أن أمير المؤمنين علياً ؑ قال: «إنما مثلى، ومثل عثمان، كمثلي أثوار ثلاثة، كن في أجمة: أبيض، وأسود، وأحمر، ومعهن فيها أسد، فكان لا يقدر منهن على شيء لاجتماعهن عليه، فقال للثور الأسود، والثور الأحمر: لا يدلُّ علينا في أجمتنا إلا الثور الأبيض، فإنه لونه مشهور، ولوني على لونكما، فلو تركتاني أكله صفت لنا الأجمة، فقالا: دونك فكله، فأكله، ثم قال للأحمر: لوني على لونك فدعني أكل الأسود، لتصفو لنا الأجمة، فقال: دونك فكله، فأكله ثم قال للأحمر: إني أكلك لا محالة، فقال: دعني أنادي ثلاثاً، فقال: افعل فتادى: ألا إني أكلت يوم أكل الثور الأبيض، ثم قال علي ؑ: ألا إني هُنت - ويروى: وهنت - يوم قتل عثمان يرفع بها صوته»، هذا مثل يضربه الرجل ينصر في حق أخيه إيقاءً على نفسه فيهلكان معا انظر: مجمع الأمثال للميداني ٢٥/١، وعنه نقل الخولي في: فرائد الخرائد في الأمثال ص ٢٥ مع تصرف يسير.

(٢) الحديث سبق تخريجه.

(٣) الحديث سبق تخريجه.

٤ - العقاب بنار جهنم :

ذلك أن من يعيش على دماء الناس وأعراضهم، وأموالهم فإنه يعاقب يوم القيامة بنار جهنم طعاماً، وشرباً، وكسوة، ونحو ذلك، من باب «الجزاء من جنس العمل» .

يقول عليه السلام : « من أكل برجل مسلم أكلة فإن الله يطعمه مثلها في جهنم ، ومن كسى ثوباً برجل مسلم فإن الله يكسوه مثله من جهنم . . . الحديث » (١) .

ب - على العمل الإسلامى :

١ - وقوع المسلمين فريسة فى أيدى الأعداء :

الزمرة بعد الزمرة والطائفة بعد الطائفة، إذ يأكلون الأضعف ثم من فوقه، ومن فوقه، حتى يأتوا على البقية الباقية من المسلمين لخذلان كل منهم غيره .

٢ - طول الطريق مع كثرة التكاليف :

وإذا أراد المسلمون العودة إلى عابر مجدهم، وسالف قوتهم بعد إذ خذل بعضهم بعضاً فإن هذا يكلفهم طريقاً طويلاً، وجهداً ومالاً فى الوقت الذى يستمتع فيه الأعداء بخيرات المسلمين وثرواتهم، مع تسخير جزء من هذه الخيرات، وتلك الثروات لضرب المسلمين، وإحكام الطوق حول أعناقهم، وذلك فيه من الخطر ما فيه .

رابعاً : أسباب الخذلان وبواعثه :

للخذلان أسباب تؤدى إليه، وبواعث توقع فيه نذكر منها :

١ - إيثار العافية والسلامة :

ذلك أن بعض الناس يرى أن نصرته وعونه لمن هم بحاجة إلى النصرة والعون قد يكلفه كثيراً من الجهد، والوقت، والمال وهو غير مستعد لتحمل هذا، لذا يترأى له أن يدير ظهره إلى هؤلاء المحتاجين إلى النصرة، والعون مؤثراً العافية، والسلامة .

٢ - البيئة :

إذ قد ينشأ المرء فى بيئة قريبة - وهى البيت - أو بعيدة - وهى المجتمع شأنها الأثرة، والأنانية، وعدم الاهتمام بإغاثة الملهوف ونجدة المكروب، فيشب على ذلك، بحيث يرى الملهوف يستغيث، والمكروب يستنجد، ولا تتحرك فيه شعرة، ولا يتمر له وجه ولا يتأثر أدنى تأثر .

(١) الحديث بجزءيه سبق تخريجه .

٣ - نسيان الأجر والثواب المترتب على نصره المظلوم وإغاثة الملهوف :

ذلك أن الشرع الحنيف قد أخبر أن هناك أجراً عظيماً وثواباً جزيلاً لمن يعمل على نصره المظلوم، وإغاثة الملهوف، وتفريج الكربات، ونسيان ذلك الأجر، وهذا الثواب يجعل المرء لا يحقر بنصرة المظلوم وإغاثة الملهوف وتفريج الكربات .

٤ - خسة الطبع، ولؤم النفس :

وقد يكون السبب في عدم نصره المظلوم، وإغاثة الملهوف ونجدة المكروب، إنما هي خسة الطبع، ولؤم النفس، إذ في كل خسة ولؤم، والمطلوب مقاومة هذه الخسة، وذلك اللؤم، فإذا لم تتم هذه المقاومة قويت هذه الخسة، ونمى ذلك اللؤم حتى يصير حيلة وسلوكاً بحيث يرى هذا الصنف من الناس المظلومين يثنون، والملهوفين يستغيثون، ولا يحرك ساكناً، ولا يدمى له قلب، ولا تدمع له عين .

٥ - عدم قيام ولى الأمر بواجبه في الحث على نصره من هم بحاجة إلى النصره :

ذلك أن ولى الأمر هو المسؤول الأول عن إقامة شرع الله في الأرض بما منحه الله من قوة وسلطان، وبما أوجب له حق الطاعة في المعروف ومن مسؤولياته الحث على نصره من هم بحاجة إلى العون والنصرة بل إلزام القادرين - بما لديه من إمكانيات - على تنفيذ ذلك، وحين يقصر في القيام بهذه المسؤولية فإنه يفتح الباب أمام الكسالى والجاهلين، والغافلين أن يقعدوا عن نصره من هم بحاجة إلى النصر والإعانة .

٦ - الغفلة عن حقوق الأخوة الإنسانية بل والإسلامية :

ذلك أن لكل إنسان حقوقاً على أخيه الإنسان بمقتضى الإنسانية، وحقوقاً للمسلم على المسلم بمقتضى الإسلام ومن هذه الحقوق : حرمة خذلانه وإسلامه لعدوه وظلمه، وتحقيره، وحين يغفل المرء عن هذه الحقوق، وينساها يكون الخذلان وما وراءه مما ذكر آنفاً .

٧ - الجهل أو النسيان للعواقب المترتبة على الخذلان :

إذ قد يكون الجهل أو النسيان للعواقب المترتبة على الخذلان من الأسباب التي يقعد بالمرء عن نصره المظلوم، وإغاثة الملهوف، ذلك أن من جهل أو نسى العواقب الضارة، والآثار المهلكة لعمل ما أقدم على فعله ظاناً أن فيه سعاده ومصالحته، والحقيقة أن فيه حتفه وهلاكه .

أ - خوف المخلوقين ، ونسيان الخالق :

إذ قد يكون السبب فى الخدلان هو الخوف من بطش المخلوقين ، وأنهم يملكون للمرء ضرراً وشقوة فى نفس ، أو مال ، أو عرض ، أو أهل ، أو عشيرة فى الوقت الذى يأمن فيه جانب الخالق الذى بيده الأمر كله وإليه يرجع الأمر كله : الحياة ؛ والموت والضرر ، والنفع ، والشقوة ، والسعادة ، والنصرة ، والخدلان .

ب - الأمان من الوقوف غداً بين يدي الله - عز وجل - والسؤال :

ذلك أن الأمان من ساعة الوقوف غداً بين يدي الله - عز وجل - والسؤال : رأيت الملهوفين ، والمظلومين ، والمكروبين ، وخذلتهم إلى حد أنك أسلمتهم إلى أعدائهم ؟ وقد جاء : « من نوقش الحساب عذب » ^(١) أن هذا الأمر يقود لا محالة إلى خدلان من هم بحاجة إلى العون والنصرة .

خامساً : طريق علاج خدلان الغير بل الوقاية :

طريق علاج خدلان الغير بل الوقاية تقتضى اتباع هذه الخطوات :

١ - التعريف بالخالق تعريفاً يملك على المرء أقطار نفسه ، بحيث يرى هذا المرء ربه : مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ، ويذل من يشاء بيده الخير ، وهو على كل شىء قدير ، ما يفتح للناس من رحمة فلا ممسك لها ، وما يمسك فلا مرسل له من بعده ، وهو العزيز الحكيم ، فيقدم على نصرته من هم بحاجة إلى النصرة مستعيناً بالله عز وجل الذى يتولى عباده الصالحين ، ويؤيد المتقين .

٢ - التذكير بلحظة الوقوف بين يدي الله عز وجل غداً ، والسؤال عن ترك نصرته المظلومين ، وعدم إغاثة الملهوفين ، وتفريج كربات المكروبين ، وأن من نوقش الحساب عذب التذكير بذلك كله ، فإنه قد يقود مع التقوى والصدق إلى الإسراع بنصرة من هم بحاجة إلى النصرة ، وإن كان معها من الشدائد والامتحانات ما معها .

(١) الحديث أخرجه البخارى فى : الصحيح : كتاب العلم : باب من سمع شيئاً فراجع حتى يعرفه ص ٢٣ رقم ١٠٣ ، وكتاب التفسير : سورة الانشقاق : باب ، فسوف يحاسب حساباً يسيراً ص ٨٨١ - ٨٨٢ رقم ٤٩٣٩ ، وكتاب الرقاق : باب من نوقش الحساب عذب ص ١١٣٢ رقم ٦٥٣٦ ، ٦٥٣٧ ، والترمذى فى : السنن : باب منه (من نوقش هلك) ص ٥٢٢ - ٥٥٣ رقم ٢٤٢٦ وكتاب تفسير القرآن : باب ومن سورة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴾ [ص ٧٦١ رقم ٣٣٣٧ ، ٣٣٣٨] كلاهما من حديث عائشة رضي الله عنها مرفوعاً به وبنحوه ، وعقب الترمذى على حديثه بقوله : « هذا حديث صحيح حسن » وزاد الترمذى مخرجاً من حديث انس رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ : « من حوسب عذب » وعقب عليه بقوله : « وهذا حديث غريب من حديث قتادة عن انس لا نعرفه من حديث قتادة عن انس ، عن النبى ﷺ إلا من هذا الوجه » .

٣ - دوام النظر فى سير النبيين وخاتمهم محمد ﷺ ، هذا يوسف الصديق يرى فى رؤية الملك محنة وشدة تنزل بالناس فلا يقول ما قال الملائكة : ﴿ قَالُوا أَصْغَاتُ أَحْلَامٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴾ (٤٤) ﴿ [يوسف] بل يقول : ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَابًّا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذُرُّهُ فِي سَبِيلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ (٤٧) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعَ شَدَادٍ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَحْصِنُونَ ﴾ (٤٨) ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْرِضُونَ ﴾ (٤٩) ﴿ [يوسف] .

وهذا موسى يجد عند وروده أرض مدين : امرأتين تزدودان ، فسألهما : ﴿ مَا خَطْبُكُمَا ﴾ قالتا : ﴿ لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدِّرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴾ (٢٣) فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴾ (٢٤) ﴿ [القصص] .

وهذا النبي ﷺ تستصرخه امرأة مسلمة اعتدى عليها واحد من يهود قينقاع فيحاصر هؤلاء اليهود حتى يجلبهم عن المدينة .

وتستصرخه خزاعة حين اعتدت عليها بكر بمعونة قريش ، فيجيبها ﷺ ، ويكون فتح مكة .

أجل : إن دوام النظر فى سير هؤلاء النبيين سيحمل على الاقتداء والتأسى لقوله سبحانه : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام : ٩٠] . وقوله سبحانه : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (٢١) ﴿

[الأحزاب]

٤ - الوقوف على حقوق الأخوة الإسلامية ومنها أنه : لا يسلمه ، ولا يخذله ، ولا يظلمه ، ولا يحقره ، فإن الوقوف على هذه الحقوق سيقود الصادقين حتماً إلى التخلص من كل هذه الأخلاق الذميمة ، والتخلق بأصداها من الحماية ، والرعاية ، والعدل ، والتوقير ، والاحترام .

٥ - قيام الأمة بواجبها فى مواجهة من يخذلون غيرهم ممن يستحق النصر ولو بالإنكار القلبي المتمثل فى القطيعة ، فإن ذلك لو تحقق قد يقود إلى التخلّى عن الخذلان ، والعمل على الوقوف بجانب الغير نصرته وإعانة .

٦ - قيام ولى الأمر بواجبه فى التحذير من خذلان من يستحقون النصره بل العمل على تأديبهم وإصلاحهم لئلا يتمادوا فى هذا الخذلان على نحو ما صنع النبي ﷺ مع الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك من ضرورة مقاطعتهم حتى تاب الله عليهم

في قوله - سبحانه : ﴿ وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ (١١٨)

[التوبة]

٧ - إسهام الأسرة في علاج ظاهرة الخذلان لدى أبنائها بأن يقلع الأبوان عن هذا الخلق الذميمة، ويعلنوا أن ذلك كان مجافياً منهم للقيم الإنسانية، وأن عليهم ألا يحاكوا الوالدين في هذا الخلق الذميمة، بل عليهم أن يتحلوا بالشهامة، والمروءة، والنخوة، وإغاثة الملهوف، وتفريج الكربات، ونحو ذلك .

٨ - دوام النظر في سير المعروفين بخذلان غيرهم وعواقبهم :

وخير ما يصور ذلك : خذلان أمراء الأندلس بعضهم بعضاً مع الاستعانة بالنصارى في آخر أيامهم، على نحو ما صنع بنو عباد وخلقاؤهم من بنى جهور، وبنى الأقطس ضد خصومهم الأمر الذي عجل بدولتهم، وجعلهم فريسة للنصارى الذين عملوا على ملاحقة المسلمين فيما عرف بمحاكم التفتيش .

إن دوام النظر في هذه السير يحمل متبلدى الحس وميتى العاطفة :

أن يغيروا موقفهم نحو المستحقين للمعونة والنصرة فتراهم يقفون إلى جوارهم يجبرونهم يؤازرونهم بكل ما يملكون من أساليب ووسائل .

٩ - دوام النظر في سير المعروفين بنصرة غيرهم ومؤازرتهم :

هذا المعتصم بالله العباسى تستغيثه امرأة في عمورية : أن رومياً لطمها طالبة الثأر والإنصاف، ورد مظلمتها لها فيغزو الروم، وينكاهم نكايه عظيمة لم يسمع بمثلها أحد، ويشتت جمعهم، ويخرب ديارهم، ويفتح عمورية بالسيف، ويطلب من المرأة أن تلطم النصرانى الذى لطمها بمثل ما فعل بها .

وهذا مؤمن آل فرعون ينهض لنصرة نبي الله موسى ﷺ حين يأتمر به الملائة يقتلوه وحين يتوعده فرعون بالقتل .

وهذا حبيب النجار ينصر الرسل الثلاثة لما كذبهم قومهم، وتوعدهم بالرجم بل بالقتل، وتصل به نصرة هؤلاء إلى حدّ التضحية بحياته في سبيل الله، وهذا نور الدين زنكى يصفه الإمام أبو شامة بقوله :

« وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين - رحمه الله - بأمر المسلمين حين نزل الفرنج

على دمياط أنه قرئ بين يديه جزء حديث له كان له به رواية، فجاء في جملة تلك الأحاديث حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يتسم ليتمم السلسلة، على ما عرف من عادة أهل الحديث، فغضب من ذلك، وقال: إني لأستحي من الله - تعالى - أن يرانى مبتسمًا، والمسلمون محاصرون بالفرنج (١).

إن دوام النظر في هذه السير يولد في نفس المرء من المروءة والشهامة ما يحمل على التخلي عن خذلان الغير، ويشجعه على نصره الآخرين، وإعانتهم بكل ما يمكن من أساليب النصر والإغاثة.

١٠ - تذكر الأجر والثواب الذى ربط الحق - تبارك وتعالى - بنصرة المظلوم وإغاثة الملهوف على النحو الذى ورد فى الأحاديث المذكورة آنفًا، فإن ذلك الأجر وهذا الثواب يهونان على أصحاب الفطر السليمة والعقول الراشدة والعارفين بالله - عز وجل - وبالعاقبة والمصير كل ما يلحقهم من أذى ومشقات من باب: « مَنْ لَاحَ لَهُ بَرِيْقُ الْأَجْرِ هَانَتْ عَلَيْهِ مَشَقَّةُ التَّكْلِيفِ » .

١١ - استحضار العواقب المترتبة على خذلان المرء لمن يستحقون الإغاثة والنصرة سواء أكانت فردية، أو جماعية، دنيوية أو أخروية، فإن استحضار هذه العواقب يحمل على جمع الهمة، ومضاء العزيمة، والمضى فى الطريق إلى نهايتها من نصره المظلومين، وإغاثة الملهوفين، وتفريخ كرب، المكروبين .

١٢ - معايشة القدوات الحية التى قدمت أرواحها وما تملك نصره للمخذولين :

لعل أصدق تصوير لهذه الخطوة حالة الأمة حين وقعت فريسة بين أنياب الاستعمار خلال القرون الثلاثة الماضية، ومنها أرض الإسلام المباركة الأقصى وما حوله، وتجهيل المستعمر الأمة، وإفساد أخلاقها، وتمزيق وحدتها حتى لا تقوم لها قائمة، وكان الأمر عكس ما توقع الأعداء إذ ظهرت الحركات الجهادية التى حملت راية الجهاد بأوسع معانيه من بذل أقصى ما فى الطاقة والوسع من أجل إعلاء كلمة الله عز وجل تارة باستحضار النية وتارة بإشاعة الفقه فى الدين والعلم الحياتى، وتارة بالتوسع فى العمل الخيرى وتارة بإعانة أسر المجاهدين، وتارة بتجهيز المجاهدين وتارة بالجهاد بالنفس، وهلم جرا .

(١) انظر: الروضتين فى أخبار الدولتين: النورية، والصلاحية.

ومن هذه الحركات على سبيل المثال لا الحصر : حركة الشهيد أحمد عرفان فى الهند، وحركة أبى الكلام آزاد، وحركة الجماعة الإسلامية فى باكستان، وحركة ندوة العلماء فى الهند، وحركة جماعة التبليغ، وحركة جمعية العلماء فى الجزائر، وحركة الأفغانى، ومحمد عبده، ورشيد رضا، وحركة الإخوان المسلمين، وحركة عز الدين القسام، وحركة أنصار السنة (السلفية)، وحركات أخرى لا حصر لها .

إن معايشة رموز هذه الحركات والوقوف على تصورها لواقع الأمة، وكيفية الخروج من هذا الواقع، ثم حملها الراية عملياً نصرةً للمظلومين، وإغاثةً للملهوفين والمكروبين وعدم التخلي عن هؤلاء، وتركهم فريسة للشياطين الإنسية، والجنية : يمكن أن يحرك الكسالى ، ويوقظ النائمين، وينبه الغافلين كى يقوموا بدورهم، وواجبهم أسوةً بغيرهم من الناس متحلين بالحكمة التى دعا إليها الشرع الحنيف فى قوله سبحانه : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل : ١٢٥] .